المرأة المغتربة في الرواية المغربية المعاصرة
– رواية "شرقية في باريس" لعبد الكريم غلاب– أنموذجا–
The emigrant woman in the modern maroccan novel"the novel:an oriental woman in paris" of abdelkarim ghellab as a model

أ. سنـاني إلهـام
(جامعة باجي مختـــار –عنـابة)
Email : ilhem.senani@yahoo.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 16 2018 ص ص 453–476.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تجلي ظاهرة الغربة في الأدب العربي المغربي، والتي احتلت حيزا هاما وواسعا في النصوص السردية المغربية لكتاب الرواية المغربية ، وقد وقع اختياري على أحد أهم الروائيين المغربيين والذي تناول رواية يتحدث فيها عن المرأة العربية المثقفة التي قصدت الغرب بغرض مواصلة طلب العلم وتحقيق طموحاتها وهي رواية "شرقية في باريس" لعبد الكريم غلاب ، وكانت من أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار هذه المدونة هي: كونها تجربة إبداعية يبين الكاتب من خلالها وعي الذات العربية ، والتي جسدها عبر نموذج المرأة التي تسعى إلى البحث عن ذاتها وكيانها ولم يكن السبيل إلى ذلك إلا الغربة واتخاذ الغرب وطنا بديلا للوطن الأم .

الكلمات المفتاحية: *الغربة، الهوية، الأنا، الآخر، المغتربة.*

Abstract

This study aims at unveiling the phenomenon of emigration in the Moroccan Arabic literature, which has occupied an important and extensive space in the Moroccan narrative texts of the Moroccan novelists. I have chosen one of the most important Moroccan novelists who spoke about the educated Arab women who moved to the West to continue her studies and to realize her dreams, that is, "An Oriental Woman in Paris" by Abdel Karim Ghalleb. The most important reason that led me to choose this novel is its innovative experience through which the writer shows the Arab self-consciousness which he embodied through the model of women seeking to search for herself and her identity and the only way to do this is to go abroad and take the West as an alternative homeland for the motherland.

Keywords : *emigration, identity, ego, other, expatriate.*

تقديم :

الغربة ظاهرة قديمة ظهرت مع الإنسان منذ القدم أي منذ بداية الخليقة وبقيت لصيقة به إلى يومنا هذا وقد تعددت معاني الغربة بمرور الزمن حيث نشأ بسيطا في دلالته إلى أن اتخذ له صورا معقدة في العصر الحديث فأصبحنا نتحدث عن الاغتراب "في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ سواء عند الذات أو عن الآخرين " **(يحي الجبوري 2008م، ص ص16،17)**.

1- مفهوم الغربة في اللغة والاصطلاح :

يحمل مصطلح الغربة معان ودلالات عديدة في كل من المعاجم والكتب السردية القديمة وقد أشار الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجم العين إلى معنى الغربة بمعنى غرب فلان يغرب غربا أي تنحى ، وأغربته وغربته أي نحيته ويقال غرب في الأرض وأغرب ، إذا أمعن فيها والغربة النوى البعيد و يقال شقت بهم غربة النوى (**الخليل بن أحمد الفراهيدي 1980 ، ص410**).

كما وردت في لسان العرب "بمعنى النوى والبعد والتغريب بمعنى النفي عن البلد وغرب أي بعد ويقال اغرب عني أي تباعد ومنه الحديث أنه أمر بتغريب الزاني والتغريب النفي عن البلد الذي وقعت فيه الجناية ويقال أغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته والغربة والغرب :النزوح عن الوطن والاغتراب والتغريب كذلك تقول منه تغرب واغترب وقد غربه الدهر ورجل غرب بضم الغين والراء وغريب عن وطنه والجمع غرباء " .(**ابن منظور ،1997 ص ص 17.18**)

نرى من خلال هذه التعريفات أن مصطلح الغربة لا تخرج عن معنى التهجير والتغريب والنفي والبعد والنزوح عن الوطن والفراق عن الأهل .

وتذكر المصادر العربية أن الإنسان الجاهلي قد ربط بين الغربة وكثير من المعاني التي تتعلق بها ، وتأتي الغربة بالمعنى السلبي وهو الشؤم والشدود أو تحمل بعض الصفات النوعية لبعض المخلوقات التي كان يتطير منها الإنسان خاصة في الجاهلية "(**الجاحظ ،1990 م،ص516**) ، ويذكر الجاحظ كلاما كثيرا عن تشاؤم عرب الجاهلية من طائر الغراب حيث اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغراب ويعلل الجاحظ لهذه العلاقة بين لفظتي الغربة والغراب فيقول "إنما لزمه هذا الاسم (غراب) إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في مرا بيض بيوتهم يتلمس ويتقمم فيتشاءمون ويتطيرون منه إذا كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين " (**الجاحظ ،1990 م،ص315**) .

ولكن تبين لنا ونحن نبحث عن مدلول كلمة غربة في الفكر الغربي وجدنا أن هذه الكلمة عرفت دلالات أخرى في الفلسفة والعلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية إبان القرن التاسع عشر.

يمكن أن نأخذ مفهوم الاغتراب عند جون جاك روسو الذي استعملها في المجال السياسي والذي رأى تولي بعض النواب تمثيل الشعب أكذوبة كبرى لأن هذا الشعب لا يمارس سيادته بنفسه ويبدأ في الانعزال داخل وطنه ومن ثم يشعر بالاغتراب (**نبيل راغب ، 2002 م ، ص 56**).

إن مصطلح الاغتراب لم يصبح فلسفيا في الغرب إلا عند فشته (1726–1814م) الذي استخدم الكلمة الألمانية Entaeussering بمعنى تخارج الذات عن الموضوع فالموضوع عنده موضع الذات وتجل من تجلياتها وبعبارة أخرى فان العالم الظاهري (الموضوع) إنما هو من نتاج الروح (الذات).

ومن هنا يمكن القول إن كل المعاني الفلسفية الحديثة تقريبا لمصطلح الاغتراب " تدور حول محور واحد وهو انفصال الفرد في إحساسه بوجود الآخرين وانعدام القدرة

على مجاراتهم مما أدى إلى شعور الفرد بضرورة الانفصال عن المجموع أو إحساسه بعدم وجود مغزى ذي قيمة للحياة مما دفعه إلى محاولة الانسحاب إلى داخل "الأنا" ليعيش في عزلة مع نفسه تاركا الحياة الجمعية **"(يحي العبد الله ،2005، ص38).**

2- الغربة والاغتراب مفارقة اصطلاحية:

لقد اقتصر مفهوم الغربة في الكتب العربية القديمة في الغالب على الانتقال والنزوح والهجرة من مكان إلى آخر ، كذلك نجد الاغتراب نزوح ولكن " نزوح نفسي داخل موطن نفس الفرد ، كونه الرفض والتمرد وربما العجز ، لكنه نزوح لا يتحدد بوقت أو مكان مستلهما قواه من قول التوحيدي (أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه) فيكون بذلك غربة ذاته تدعو للانفصال عن المجتمع والعيش في غربة روحية غارقة في عمق الذات الإنسانية يعيشها لشعوره بالانفصال حتى عن ذاته "**(أحمد علي إبراهيم الفلاحي، 2013/1434م ص15)**.

فالغربة في جميع مظاهرها مرة ولعل أخطر غربة هي الغربة التي يعيشها الإنسان داخل وطنه إذ يعاني أنواع الظلم والاضطهاد أو الفقر والحرمان ، ويصدق في هذا الموضع قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه " الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن **"(علي بن أبي طالب، ص 14)**

3- أسباب الغربة :

لقد تعددت الأسباب التي تفرض الحاجة إلى الانتقال الطوعي أو القصري من بلد إلى آخر ، فربما تكون سعيا في مواصلة الدراسة والحصول على الشهادات أو بسبب" الرغبة في التخلص من قمع الحرية الشخصية أو الجماعية والمضايقات والضغوط السياسية سواء كان السبب فيها الاستعمار أو السلطات المحلية ...إذ تفرض الغربة أحيانا على الإنسان كرها حينما يتعرض إلى النفي أو الإبعاد عن الوطن

أو تضطره مضايقة السلطة الحاكمة إلى اللجوء إلى بلد آخر هربا بجلده"(**هديل عبد الرزاق أحمد 2016 م، ص ص67، 68**) أو بسبب الضغوط الاقتصادية والأزمات المادية وتعد هذه الأسباب من أهم العوامل التي تدفع الشباب إلى الهجرة نحو العالم الغربي على الرغم من الصعوبات التي يعانيها في البلد المغترب فيه إلا أنه يتحمل كل المتاعب والهانات مقابل الحصول على المال .

4- موضوعة المغترب في الرواية المغربية:

حضيت الرواية المغربية باهتمام النقاد والدارسين فقد تناولوها بالدراسة والتحليل من كافة النواحي الاجتماعية والنفسية والثقافية والاقتصادية والأخلاقية ،كما انصب اهتمامهم على الجانب الأدبي والفني والتحليلي .

نحاول من خلال دراستنا هذه أن نهتم بإحدى القضايا التي اهتمت بها الرواية العربية وهي موضوعة المغترب باعتبارها إحدى مكونات الواقع الاجتماعي والنفسي والسياسي والثقافي والاقتصادي. والمتتبع لهذه الموضوعة في الرواية يجد أن هذه التيمة احتلت مكانة الصدارة في مضامين العديد من الروايات المغربية ، وقد ازدادت هذه الظاهرة بروزا في عصرنا الحالي نتيجة الظروف المعيشية الضنكى والحروب والتناحرات الداخلية وقوى السلطة الطاغية وغيرها. لذا يحاول هذا الإنسان اتخاذ الغربة وسيلة للهروب نحو واقع جديد والذي يتمثل في الغرب الحلم الذي سيطر على عقلية أغلب الشعوب العربية ، مما يمثله من تطور وازدهار في كافة المجالات .

وقد تناول موضوعه المغترب في الرواية المغربية كتاب كثيرون وقد عبروا عنها من خلال تجاربهم الشخصية خاصة الكتاب الذين هاجروا إلى الغرب وعاشوا تجربة الغربة.

لقد تبلورت تيمة المغترب في الرواية المغربية بشكل يستحق الدراسة والاهتمام ، حيث عالجت هذه الروايات مختلف ما يصادف هذا المغترب من أزمات تمر به وتفصح له بدورها عن موقف الآخر منه ونظرته له ، ولسنا هنا بصدد الحديث عن أدب الغربة بوصفه الأدب الذي يكتبه الكاتب خارج وطنه ، بل نحاول أن نسلط الضوء موضوعة الغربة التي تبرز بشكل واضح وبارز في نسيج الخطاب الروائي الملتحم بالواقع .

تمثل ثنائية الأنا والآخر إحدى أهم الثنائيات البارزة التي لا يستطيع الواحد منهما أن يعي ذاته ويكشفها دون وعي الآخر ، ورغم كل الصراعات والنزاعات التي تفرقها إلا أنها السبيل الوحيد الذي يجمعها على مستوى علاقة تلازمية شرطية جدلية لا مناص من بنائها دون السعي الحثيث لاستيعاب كنهها " **(عالية زروقي: 2017 م ، ص ص 40 ، 41)** ، ذلك أن الأنا لا يمكن أن تعرف مدى تطورها أم تخلفها إلا من خلال الآخر وكذلك الشأن بالنسب للآخر، وبالتالي فإن تخلف الشرق هو ما أعطى صورة مضادة له ،حيث يمثل الغرب رمز القوة والتطور لهذا يبقى الأنا في توق دائم إلى التطور ومواكبة الحضارة الغربية ، لذا يبقى حافز النهوض هدفا منشودا لكل " الشعوب المساهمة في تعميق الوعي الحضاري ، حتى لا ينحصر التفكير في المسائل المصيرية والقضايا الحساسة في العالم الغربي وحده ، إن رواسب التاريخ من مخلفات الحروب الصليبية ، وتركات الاستعمار الحديث التي تدفع الإسلام والغرب للتصادم ، بينما تحديات المستقبل المشتركة تفرض عليها التعايش " (**سالم المعوش : 1428هـ / 2007 م ، ص 313)** ، والحوار للقضاء على النظرة القديمة ومحاولة خلق علاقة ندية قوامها المساواة وقد جسد عبد الكريم غلاب هذه الرؤية خير تجسيد من خلال روايته " شرقية في باريس " إذ حاول من خلالها خلق إمكانية التعايش والتواصل مع " الآخر

كغاية إجرائية تهدف وتعمل معا على محاولة تأسيس حوار إنساني وإيجاد أساليب للتواصل الثقافي " (**عالية زروقي: 2017 م ، ص44**).

يعد عبد الكريم غلاب من الأسماء البارزة في الساحة الأدبية المغربية والعربية نظًرا لسعة فكره وإنتاجه الغزير في مجال النشر والتأليف.

إن ما يهمنا في إنتاجه الأدبي هو ما نشره في مجال الرواية، فقد نشر عدة روايات بداية برواية دفنا الماضي والتي تعد من الروايات التأسيسية للرواية المغربية واليوم نقف عند إحدى أهم رواياته والتي لا تقل أهمية عند رواياته السابقة هذه الرواية التي اتخذت من الغربة تيمة أساسه لها وهي رواية شرقية في باريس تطرح هذه الرواية إشكالية علاقة المغترب بالأخر الغربي وقد تجسدت هذه العلاقة من خلال فتاة شرقية سورية الأصل قصدت الغرب وبالتحديد فرنسا، العالم الذي طالما حلمت بالسفر إليه.

كما تعد هذه الرواية مساهمة جادة على مستوى الخطاب الروائي على « الصعيد المحلي أو على الصعيد العربي، ولعل هذه الرواية فيما انطوت عليه من جانب موضوعي وفكري جعلها تكتسب أهمية وخصوصية متميزة، فقد تصدت للذود عند كرامة الإنسان العربي التي تعرضت للانتهاك والتشويه والابتدال على أيدي الأنظمة الديكتاتورية المسلطة» (**عدنان علي الشريم: 1429هـ / 2008م ، ص129**).

ولذلك فقد جاءت هذه الرواية حافلة بالحوارات الفكرية السياسية التي تسعى إلى القضاء على الفكر المتزمتومجابهة لكل أنواع القمع والحّط من قيمة الشعوب المتخلفة.

ومما يسجل لهذه الرواية أنها تجاوزت هيمنة الصوت الذكوري «حيث يمنح المؤلف الرجل البطولة الروائية، إذ منحها للمرأة التي بدت شخصية رئيسية نقيضه

للصورة النّمطية للمرأة الشرقية...لهذا استطاع الروائي أن يجسد، عبر أقوالها وأفعالها، قدرة العقل المنفتح على التغيير باعتماده على المعرفة والحب، وقد أتاح للمتلقي عبر هذه الشخصية وفاعليتها، معايشة آليات هذا العقل، الذي ينطلق من مبدأ التعامل الندي بعيدا عند لغة الاستعلاء» (**ماجدة حمود: ربيع الآخر 1434، مارس 2013م ، ص 178)** ، حيث جعل من الشخصية البطلة إنسانة تحترم ثقافة الآخر وتنظر بندية إليه، كما تهتم بتبادل المعارف معه.

لقد حاول عبد الكريم غلاب من خلال روايته أن يخلق من خلال بطلة روايته سامية نموذجا للمرأة العربية الواعية المثقفة التي تحاول أن تثبت وترسخ وجودها في عالم الغرب من منطلق العلم والمنطق والثقافة وأفكار التحرر والمساواة **(سهى خالد عبد اللات: شخصية المرأة في الرواية النسوية الأردنية، 2007 م، ص150) .**

ويمكن أن نطرح التساؤل الآتي : هل استطاعت سامية المرأة الشرقية المثقفة بوعيها المتفتح وعبر تجاربها المتنوعة في الغرب أن تؤكد ذاتها ؟

دلالة العنوان:

يتكون عنوان رواية شرقية في باريس من ثلاثة أدلة لغوية ، حيث تحيل الكلمة الأولى شرقية إلى تحديد الانتماء الثقافي " الشرق" كما أن الكاتب تعمد استعمال كلمة شرقية التي تفيد التعميم بدل استعمال كلمة سورية التي تفيد التحديد لأنهما يوحيان بالانتماء إلى الثقافة العربية والإسلامية فإحلال كلمة الشرق تحيل إلى تجاوز البعد العقائدي المشكل للهوية ، إضافة إلى حضور شخصيات شرقية تنتمي إلى آسيا وإفريقيا هاجرت إلى باريس بغرض مواصلة الدراسة وبالتالي فحضور الأنا عند الآخر لم يكن مقتصرا على سامية السورية فقط ، أما الدال اللغوي الثاني فيتمثل في حرف الجر "في" المحدد للوجود في المكان أما الدال اللغوي الثالث فيتمثل في " باريس" وبدل

أن يذكر الغرب مقابل الشرق ذكر باريس على وجه التخصيص باعتبارها عاصمة الأنوار لذا فقد اختارها لتعبر عن قيم ومبادئ الغرب على اعتبار أن المبادئ والقيم التي تنادي بها فرنسا تنطبق على الغرب كافة .

تنطلق أحداث الرواية بعد أن تحصلت سامية على شهادة البكالوريا لتنفتح بعد ذلك على عالم الأنترنيت الذي أتاح لها فرصة الحوار مع الآخر، حيث تعرفت على شاب فرنسي يدعى أندري لتدور حوارات شيقة بينهما لتؤدي هذه المحاورات في الأخير إلى إعجاب كل واحد منهما بالأخر يعبر أندري عم إعجابه ، بفكر سامية قائلا « ما كنت أدري أنني أمام فيلسوفة تستطيع بعبقريتها أن تجمع العالم في واحد» **(عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس،2006 ص34)**

تعجب سامية بالعالم الآخر (فرنسا) فتزداد رغبتها في مواصلة دراستها بالخارج حيث تقف عائلتها المحافظة حاجزًا وعائقا أمام أحلامها الطموحة خاصة أمام والدها الذي لن يتقبل هذه الفكرة، تحاول سامية الضغط على والدتها من أجل إقناع الوالد وبالفعل تستطيع الوالدة إقناع والد سامية فيوافق في الأخير على سفرها إلى بلاد فرنسا.

تسافر سامية إلى فرنسا لمواصلة دراستها، وهناك تتاح لها فرصة لقاء الفرنسي أندري خريج كلية الحقوق الذي سبق وأن تعرفت عليه عبر شبكة الأنترنيت في سوريا لتتقدم العلاقة بينهما إلى علاقة حب، تنتهي بطلب يدها للزواج، لم تجد سامية حرجًا في الارتباط به مادامت تحبه حبًا كبيرًا وإن في اتخاذها هذا القرار لتحد كبير بعادات وتقاليد عائلتها المحافظة وكذلك لدينها، وتجدر الإشارة إلا أن هذا «التحدي وهذا التحرر لم يكن رغبة في الخروج على إرادة الأسرة أو تمردًا على القيم والعادات ككل أو كسرًا لأوامر تلك العلاقة وإنما كانت تحررًا من نوع آخر ينسجم ورؤيتها

اتجاه ذاتها ورغباتها، لقد ميزت بين مصلحة الأسرة وهدفها الذاتي على قاعدة فلسفة نيتشه وجيد وسارتر، فهي تحاول الخروج من بنية منظومتها الفكرية في إطار الانسجام مع ذاتها وفكرها ومنطلقاتها» (**حسن عليان: العرب والغرب في الرواية العربية، مرجع سابق ، ص121.)**

يأخذ أندري بيد سامية ليسافر سويا إلى سوريا لطلب يدها من والدها ومن أجل تحقيق هدفه أعلن إسلامه بأنه نطق بالشهادتين الذي حفظ كلماتها ولا يعني شيئا من معانيها، فكان إسلامه من أجل موافقة عائلتها على الزواج وبعد موافقة الأهل وإتمام مراسيم الزواج ببلاد الشام، الُرَحل سامية مع زوجها إلى فرنسا لتكتشف سامية هناك أشياء لم تكن في الحسبان، فقد وجدت الإنسان الذي أحبته إنسانا أنانيا متعصبا لحضارته الغربية المادية لا يؤمن بالروحانيات يرفض الحوار يحتقر الآخر خاصة الشعوب المتخلفة الذي يرى أنها عالة تستحق الإبادة إن « البلاد التي لا توفر لأبنائها الخبز يجب أن تباد... نعم يجب أن تباد، ما قيمة الشعوب إفريقيا جميعها وبعض شعوب آسيا وأمريكا اللاتنية ، وإنهم جميعا عبء على الإنسانية، كابح يحد من سرعة سيرها...شعوب لا تنتج حتى غداءها وتطلب من الآخرين الغداء وطباشير السبورة ليتعلم (الأميون) فيما كيف يكتبون أسماءهم» (**عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس، 2006، ص96)**

إن ما زاد من تعصب أندري وكرهه للشعوب الضعيفة واحتقارها هو انتماؤه السياسي لحزب الجبهة الوطنية للعنصرية بزعامة اليميني المتطرف لو بين: هذه الجبهة التي تعمل على تعضيض العداء للأجانب وخاصة المهاجرين العرب والأفارقة فهي تعبر وتشهد على عنصرية الغرب من بينها قيام المتظاهرين الموالين للجبهة الوطنية بالمطالبة بإخراج كل أجنبي من بلادهم وعند مصادفتهم لشاب«في نحو الخامسة

والعشرين سنه أسمر اللون، تهافتوا عليه وحملوه ثم قذفوا به في النهر» (**عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس،2006 ، ص87**)

إن انضمام أندري لهذه الجبهة جعلت منه إنسانا متطرفا عدوانيا لا يقبل الحوار تقول سامية عن زوجها أندري «كان يعود من الاجتماعات التي يخطب فيها زعيم "الجبهة الوطنية" شخص آخر غير الذي كنت أعرف، تغيرت لغته واحتدت لهجته في الحوار، منطقه أصبح يميل إلى العنف حتى أحلامه في الليل أصبحت تزعجني، يخطرف وهو نائم ليوقضني صوته المزعج» (**الكريم غلاب: شرقية في باريس،2006 ، ص88**)

وقد لاحظت سامية تعصب أندري وعنصريته في عدة مواقف أبسطها مشهد جميل لفتاة زنجية كانت تسير رفقة شاب فرنسي في إحدى شوارع باريس الراقية ، هذا المشهد الذي أثار غضب أندري إلى حد أوصله إلى درجة الغثيان قائلا لسامية «أو كونت تريدينني أن أسير في مواجهة المشهد الغريب المثير للغثيان في أجمل شارع في باريس؟

المشهد أثار أعصابي إلى حد الغليان ، شاب في قمة الأناقة والجمال والنظافة يتأبط ذراع امرأة سوداء، يسيران في بساطة كأننا نحن الفرنسيين ليس لنا كرامة...» (**عبد الكريم غلاب : شرقية في باريس، 2006م ، ص90**)

كانت عنصرية أندري وتعصبه تزداد وتنمو يوًما بعد يوم إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي حدث فيه نقاش حاد بينه وبين سامية وكان بحضور صديق العائلة جورج حول قضية عمر الرداد، وقد وصل النقاش بين الزوجين إلى حدّ الإهانة والضرب «لا يا جورج المشكلة أكبر من ذلك هذه "الشرقية"...نطق الكلمة بكثير من الازدراء... ولأول مرة لم يلفظ باسمي (وأصلي إلى الأخير)

تحاول أن تدافع عن مجرم من طينتها.

احتدت أعصابي أكثر من ذي قبل تمنيت لو أن جورج لم يحضر تلك الساعة ليستمع إلى الازدراء كلمة "الشرقية "صرخت على قدر ما تسمح حدة أعصابي.

غير محق أنت (التفت إلى جورج) جورج : هذا إنسان لا يقول الحقيقة شرفي كشرقية يمنعني أن أدافع عن مجرم.

ما كنت لأحتد لولا أنه أعاد اتهامي عدة مرات وأمام رجل يحترمني مثل ما أحترمه ، ضغط على أعصابي حتى نطق لساني بالحقيقة.

(صرح في جنون) أنا كاذب يا شرقية يا فاجرة...؟

تحسست خذي وأنا أشعر بأن دماء تفجرت من ينابيعه، دمعتان تنبعان من عيني ، أدرت ظهري للرجلين فتحت الباب» (**عبد الكريم غلاب:شرقية في باريس ، ص ص 106، 107)**

لقد كان لهذا النقاش عواقب على حياتهما الزوجية التي انتهت في الأخير بالفراق والانفصال ، لأن سامية رأت أنه لا يمكن مواصلة العيش مع إنسان لا يحترم الرأي الآخر فقد كان أندري دائما يحتقر كل أفكار سامية ، فهو يرى أنها ابنة حضارة متخلفة يستحيل أن ترتقي إلى حضارته المتقدمة.

و بالتالي فإن قرار الانفصال كانت سامية من اتخذته، فهي تفضل أن تعيش وحيدة على أن تعيش مع إنسان يستهين بها وبحضارتها.

وتعد لحْظة انفصال سامية عن زوجها هي اللحظة الذي انطلق منها عبد الكريم غلاب في بناء أحداث روايته فمن خلال هذه البداية يسعى إلى «خرق المألوف خصوصًا على مستوى الطابع الكرونولوجي التقليدي ، (فكانت) البداية من هذا المنظور مشهدًا سرديا مجتزءا من الزمن بعد ذلك يتم اللجوء إلى الاسترجاع قصد تجسيد البداية بما سبقها» **(شعيب حليفي: 2003م، ص93).**

لقد كان لهذه البداية وظيفة إغرائية تعمل على فتح شهية القارئ على مواصلة القراءة ، كما تعمل على خلق باب الفضول لمعرفة ما سيقع ، وبما أن البداية تعد من أعقد مكونات العمل الروائي ، فإن عبد الكريم غلاب يسعى إلى بناء بداية روايته بالحدث الرئيسي الذي سيغير مسرى أحداث الرواية ، وعلى الرغم من بساطة الحدث إلا أن وقعه عميق لأنه يطرح الإشكال الأساسي الذي تقوم عليه الرواية وهو صدام الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية وكيف ينظر كل واحد منهما للأخر (**نور الدين الصدوق: 1994م ، ص25)**

انطلقت الرواية من الصفعة الموجهة إلى سامية التي كانت صفعة معلنة عن الانفصال هذه الحادثة التي غيرت من مسار الرواية ، فبعد أن كانت البطلة تعيش في صراعا مع الآخر يتحول ويتغير هذا المسار إلى مسار سنتابع أحداثه في المسار الثاني بعد طلاقها.

وعلى الرغم من محاولات أندري المتكررة في إصلاح الأحوال وإرجاع سامية إلى بيتها ترفض ذلك رفضا تامًّا فهي لم تعد تطيقه ولا تطيق اسمه تقول سامية « لم أكن أطيق أن يتردد اسمه في خاطري مرة أخرى ولم تكن أذناي يّرحبان بما سمعتا» **(عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس ، ص108) ،** فسامية ترى في قرارها حفاظا على كرامتها وصونا لوطنها وحضارتها التي تعد فوق كل اعتبار.

بذلك استطاعت سامية أن تتحرر من ذلك الإنسان المتعلق الذي تجرعت معه مرارة الإهانة وعدم الاحترام لدينها ولا لمبادئها ولا لحضارتها، وبعد رحيل سامية من بيت الزوجية تنتقل إلى غرفة بفندق السيدة بوفاردي لتبقى هناك حبيسة تلك الغرفة رفقة الذكريات الأليمة التي عاشتها مع أندري فبالرغم من طلاقها إلا أنها لم تستطع التخلص والتملص من تلك الإهانات وذلك الماضي الحزين.

بعد حزن طويل وتفكير عميق تقرر سامية الخروج من قوقعة ذلك العالم المظلم والقضاء على تلك الذكريات الحزينة معلنة التحدي ومواصلة مشوارها التعليمي حيث تقول « أنا الآن سيدة نفسي أجعل منها ملكة متوجه بالحب والكرامة والفكر والعمل لقد أنهزم وما انهزمت قط مند صباي حيتي حينما أحببت أندري وهو نصراني فتزوجته، أنا امرأة أعيش مع مشروع من حسن حظي أن ثقافي، لم أقبل أن يحدّ من طموحه أندري، ولا الأزمة التي مّرت بها علاقتي به...لن يعرف الفشل طريقي فما فشلت فهو مشروع اعتزمت القيام به» **(عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس ، ص108).**

على الرغم من الوضع المأساوي الذي عاشته سامية مع زوجها إلا أنها كانت أنموذجًا متفردًا لشخصية المثقف الإيجابي المدافع عن شرقيته والنموذج الإنساني ، فهي لم تقف عند الهزيمة بل واصلت دربها ودورها الحضاري والإنساني.

لقد أعطى عبد الكريم غلاب صورة إيجابية للمرأة العربية المثقفة من خلال تبيان قدرتها الإيجابية في التعامل مع الآخر وحرصها على حريتها وقدرتها على اتخاذ القرارات، وتقرير مصيرها بنفسها ، فسامية استطاعت تجاوز كل العقبات بقوة شخصية وإرادة قوية وعزة نفس عالية، فعلى الرغم من طلاقها ترفض وتأبى الرجوع إلى وطنها فهي لا تقبل أن تكون تلك المرأة المنهزمة الضعيفة التي ينظر إليها على أنها تلك المرأة المسكينة التي طلقها زوجها، كما تعلم أن المجتمع العربي لا يرحم المرأة المطلقة.

وبالتالي فإن سامية كانت امرأة واقعية لها القدرة على التشكل وفق المواقف المتغيرة وترجع هذه القوة إلى الحرية التي منحتها لنفسها، فهي ليست من النوع الذي يستسلم بسهولة ويرضى بالهزيمة، وتبرز قوتها وواقعتها في محاولة خلق واقع جديد بعد

إخفاقها في العلاقة الزوجية، لهذا بحثت عن واقع جديد يعيد لها حياتها وكيانها ونشاطها.

لقد قررت سامية أن تعيش حياتها بعيد عن الذكريات الحزينة والماضي الأليم، فراحت تجول في أنحاء باريس معلنة حريتها وسعادتها بهذا العالم الواسع الأرجاء، فراحت تمنع أنظارها بالمعالم الفنية والعمرانية الراقية قائلة: «حرة أنا... سأزور باريس بكل معالمها... سأدخل "اللوفر" في مطلع الصباح أنتقل بين أبهائه، أتجول في صالات تماثيل الآلهة وكبار الفلاسفة والكتاب اليونانيين والإيطاليين سأرتاد بهو فراعنة مصر وملوك الأشوريين، وقواد الحروب ودعاة السلام، دخلت وأنا أسير الهوينى في أرتال من الّرواد السائحين أبهاء كبار الرسامين الإيطاليين والإسبانيين والفرنسيين» **(عبد الكريم غلاب،شرقية في باريس، ص111)** ، كما كانت ترتاد على المكتبات وتطلع عناوين الكتب الجديدة الطبع منها والقديمة.

كما كانت تقّر أنه ما من « زائر أو متجول إلا ويحمل بين يديه كتابا وفي محفظته الكثير منها حسبتني أتجول في مدينة العرفان ثقافتي ترتوي من عناوين الكتب، عنوان يرمي بي في بحر لجي من الأفكار أحيانا أتجاوب معها وأحيانا أختلف» **(عبد الكريم غلاب،شرقية في باريس، ص120).**

لقد استطاعت سامية التغلب على ماضيها الحزين وعلى حياة العزلة والكآبة بالتجوال في ملكوت عناق الحضارات «ولتؤسس بذلك المستقبل بحركاتها وكلماتها الرافضة لكل ما خلف شخصيتها» **(عبد الكريم غلاب،شرقية في باريس، ص118).**

تعمدت الرواية أن تصف «فترة من حياة جديدة تفصل بين قرار العودة والاستمرار في باريس وهي فترة كرست لزيارة معالمها الفنية والعمرانية...ويعتبر هذا الصنيع بمثابة اختبار تأهيلي حقيقي لتنفيذ المشروع الحضاري الفعلي الذي أتت من

أجله ، وذلك واضح لأنه يؤشر بجلاء على البداية الفعلية لكل نهضة حقيقية في أي مجال بالنسبة لأي ذات وتلك هي الآلية الذهنية الموضوعية التي أهلتها لتحقيق مشروعها النهائي»

عبر هذه الرحلة الممتعة التي قضتها بين معالم باريس تقرر سامية في الأخير العزم على العودة للدراسة والالتحاق بمعهد دراسات سيكولوجية الشعوب ونفسياتها «وهذا معهد جديد أنشئ نتيجة معرفة العلماء بمجتمعات المستعمرات لا يدرس الاستعمار بل يدرس ما بعد الاستعمار النتائج الإيجابية والسلبية للتطور العلمي بعد أن استقلت كل الشعوب التي كانت تحت الاستعمار الفرنسي والإنجليزي و الهولاندي» **(عبد الكريم غلاب،شرقية في باريس، ص137).**

في المعهد تتعرف سامية على مجموعة من المغتربين مثلها قصدوا هذا المعهد بغرض الدراسة منهم عائشة من السنغال وتاولو من ساحل العاج وجون من فرنسا وصبيحة من مصر وأياكي فوكو من الغنفو.

كما تتعرف على الأستاذ البروفيسور فرنسوا عميد المعهد الذي تعجب بثقافته وعلمه الواسع، إضافة إلى فكرة الإنساني المتسامح لقد كان الأستاذ فرنسوا على قدر كبير من السعادة لأنه يدرس طلبته من شعوب متفرقة تتعدد حياتها الاجتماعية والثقافية.

لقد أفرد الأستاذ فرنسوا جانبا كبير للحديث عن العلاقات التاريخية والاجتماعية ما بين الشعوب ، فجاءت حوارات نقدية واعية على لسان فرنسوا وسامية وزملائها التي تعمل على تشريح العلاقات والأسس والمبادئ ما بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية.

جاءت الرواية زاخرة بالأفكار السياسية والفكرية والاجتماعية والفلسفية ، فكل شخصيات الرواية تحاول أن تبرز أفكارها وتقدم الحجج والبراهين لإثبات رأيها حول أفكاره ، وكل هذه الحوارات تصب في مصبّ واحد هي ضرورة حوار الثقافات وتكامل الحضارات وخلق حضارة إنسانية مشتركة إذ لم يغب عن رؤية فرنسوا « أهمية الحوار ودوره في توسيع الأفق وتحديد الأولويات وتشريح الواقع للخروج منه نحو رحاب المستقبل» (**حسن عليان ، ص158**) ، وقد خصص لكل طلبته حوارات خارج الدرس يلتقي بكل طالب على حدا ليجري معه حوارات عديدة حول قضايا متعددة.

لقد كانت سامية من بين الطلبة التي أثارت إعجاب فرنسوا لأنه وجد فكرها على تقارب من فكره.

وقد أشاد بفكرها الذي يسعى إلى ضرورة تحقيق التقارب بين الشعوب وعناق الحضارات واندماجها والبحث عن مصير مشترك للإنسان.

وهذه هي الفكرة نفسها التي كان يسعى إليها فرنسوا إليها ، فمن خلال كل رحلاته إلى المشرق والمغرب كان يحمل رسالة تدعو بضرورة وحدة الفكر والحضارة وتنسيق حياة الشعوب، إلا أنه قد وجد صعوبة في تحقيق ذلك بفعل مخلفات الأثر النفسي للاستعمار البغيض.

لذا فالأستاذ فرنسوا دائما في سعي حثيث من خلال محاضراته إلى الدعوة بضرورة إزاحة العراقيل العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسة والعسكرية التي تأخذ أبعادها من رواسب الماضي وحروب التاريخ وسيطرة الجغرافيا "المقدسة" **(عبد الكريم غلاب:شرقية في باريس، ص180).**

كما تطرق الأستاذ فرنسوا في إحدى حواراته مع الطالبة سامية إلى موضوع تقارب الأديان حيث طرح تساؤلا «كيف تنتصر فكرة القرب على الخلافات الدينية

وعمق الصراع الديني الذي عاش بين الإنسانية قرونا وما يزال؟» **(عبد الكريم غلاب:شرقية في باريس، ص181).**

تجيب سامية على سؤاله إلا أنها لا تستطيع الوصول إلى الإجابة التي يريدها فهو يرى « الدين ليس مشكلة. المتدين هو المشكلة الحروب الصليبية وشقيقتها حروب الشرق الأوسط في فلسطين لم تكن، وليست هي:بين الإسلام والمسيحية ولا بين الإسلام واليهودية ، وإنما هي بين المسلمين والمسيحيين وبين اليهود والمسلمين لعلك تدركين أن العقلية متخلفة وهي التي جلبت سلاسل الحروب... وجلبت الاستعمار وربما هي سبب الحروب التي تعرفها المنطقة الشرقية وستعرف حروبا مماثلة» **(عبد الكريم غلاب:شرقية في باريس، ص182).**

وهكذا وبعد حضور لقاءات عديدة مع الأستاذ فرنسوا ينتهي الكل إلى رؤية مفادها ضرورة تصالح الشعوب وذلك بتصحيح الأفكار المتعصبة والمتزمتة والرؤية الدونية التي يحملها الواحد عن الآخر ، بذلك يستطيع أن يعيش العالم في تفاهم وتسامح وتصالح بدل الصراع والمواجهة التي لا يجني منها الواحد إلا الحقد والكراهية والحروب والدمار ، كما أن تحقيق هذا ليس بالسهل والبسيط بل مهمة صعبة يجب أن يتقيد بها جميع المثقفين و المفكرين والباحثين يقول الأستاذ فرنسوا « أن المشاكل الاجتماعية والنفسية للشعوب لا تناقش بالنفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الدولي للدولة فهي بعيدة عن الدولة ولو أنها مسؤولة عنها ، ولكنها مسؤوليات يتحملها المثقفون والمفكرون من أبنائه ومراكز البحث والدرس ، ومن ثمة كانت مشاكل فرنسا في مستوى مشاكل إفريقيا وآسيا من حيث عمقها الاجتماعي أو النفسي بقطع النظر على المستوى الثقافي للشعب أو المستوى الدولي للدولة» **(عبد الكريم غلاب:شرقية في باريس، ص184).**

وكان من الطبيعي أن تنتج عن هذه اللقاءات والحوارات الشيقة بين سامية وفرنسوا علاقة إعجاب تنتهي في الأخير بزواج ناجح نظًرا لتوافقهما الفكري ، وبالتالي كانت شخصية الزوج الثاني (فرنسوا) متناقضة مع الزوج الأول (أندري) على الرغم من انتمائهما إلى دين واحد ولغة واحدة وبلد واحد إلا أن أفكارهما ورؤيتهما للعالم مختلفة تمًاما، فالأستاذ فرنسوا إنسان متفتح يقبل الحوار الحضاري ، أما أندري فعلى عكس ذلك فهو إنسان متعصب للحضارة الأوروبية لا يقبل الحوار يؤمن بالصراع ، فالاختلاف لا يقتصر على الشرق والغرب فقد لاحظنا أنه على الرغم من انتمائهما إلى حضارة واحدة إلا أن فكرهما مختلف ، وعليه فتصالح الشعوب يقوم على التقائها في الأفكار ، إذن لا فرق بين الشعوب والحضارات إلا فيما تمتلكه من أفكار متسامحة ونوايا حسنة.

لقد كانت علاقة الزواج بين سامية الشرقية وفرنسوا الفرنسي خير علاقة تجسد الجسور « التي تبنى بين الأنا والآخر؟ فهي رابطة دموية ، تنجب أجيالا يمكن لها أن تحقق الانفتاح والتسامح بأروع صورة، بشرط أن تقوم هذه العلاقة التي يؤسسها الحبّ ، على مبدأ الندية والاحترام المتبادل للأفكار والمعتقدات عندئذ تنتفي النظرة الاستعلائية، ولغة الهيمنة، لتفسح المجال لبناء جسور التفاهم والوّد» **(ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص52).**

وهكذا كان هذا الزواج المكلل بالسعادة والتفاهم والحبّ والنجاح بارقة أمل في تلاقح الحضارات وانصهارها في حضارة إنسانية واحدة تقول سامية لزوجها « خرجت الحضارة بحبنا– منتصرة في معطف صراع الحضارات... لا شرق ولا غرب لا شعب يملك ناصية الحضارة لتصارع الحضارات نهاية.

بداية عناق معا، مع الآخرين والأخريات، نبني مستقبل الحضارة الموحدة. نهاية التاريخ... بداية مستقبل سعادة الإنسانية جميعها. ستشرق على العالم في ظل حضارة موحدة قوامها الحب. أنا سورية أنتمي إلى حضارة شرقية، تعلمت في غرب يقال عن حضارته إنها أم الحضارات، الأم التي لاتنكر لبنيها، سيكبرون وهم يعتزون بأمومتها.

- لنحتفل يا فرنسوا في اليوم المائة بميلاد عهد جديد، عهد وحدة الحضارات.
- أمسك فرانسوا بيدها في حرارة وهو يقول:
- أنت... أنت سامية يا سامية » **(عبد الكريم غلاب: شرقية في باريس، ص231).**

يؤكد لنا الّراوي أن « اجتماع الثقافة ومشاعر الحب بين الأنا والآخر يفسح المجال لبزوغ علاقة منفتحة ، يسودها التسامح واحترام خصوصية الاختلاف مما يؤدي إلى مقاومة مختلف الإكراهات التي تنتمي للعقل المغلق الذي لا يعرف الحب ، بل يعيش محاصرا بلغة الكراهية والعدوان ، فيدّمر إمكانية ازدهار إنسانية الإنسان إذ ينبذ التواصل مع المختلف فينبذ الغني في الحياة لينشر الظلمة والموت والدّمار» **(ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص ص 173، 174)**

وبهذا كانت سامية مثالا للمرأة المثقفة التي استطاعت أن تطرح أفكارها وتسيطر على أمورها وتأثر في محيطها ، فضلا عن قدرتها في كسب ثقة الآخر لها ، وذلك بفضل شخصيتها الواعية والمتوازنة وما تسهم به من أفكار إيجابية تساير حركة الواقع المعيش للإنسان **(سهى خالد عبد اللات : شخصية المرأة في الرواية النسوية الأردنية ، 2007 م ، ص151) .**

إن سامية كانت مثالا لنموذج المرأة الإيجابية التي تحدت الصعاب كما ضحت بعاداتها وتقاليدها ودينها وبعشها الزوجي في سبيل تحقيق كيانها الحضاري الإنساني.

وفي الأخير نشير إلى أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة:

– لقد أعطى لنا المؤلف عبد الكريم غلاب صورة جديدة عن المغترب المثقف ، فبعدما شهدنا في بدايات الكتابة الروائية المشرقة والمغاربية أن العلاقة التي تربط المثقف المغترب في أغلبها علاقة انبهارية وإحساس بالدونية أمام التطور الهائل الذي شهده الغرب على مستوى كافة الميادين ، أما في هذه الرواية فنلاحظ أن المغترب المثقف قد قضى على تلك الرؤية الانبهارية ليعيش علاقة ندية إيجابية أساسها التواصل والتعايش والحوار.

– مما يسجل للرواية أنها تجاوزت هيمنة الصوت الذكوري – حيث يمنح المؤلف البطولة دوما للرجل– لتظهر الأنثى الشخصية المحورية في الرواية، وقد برزت بصورة نقيضة للصورة النمطية للمرأة الشرقية ، فقد صورتها شخصية منفتحة مثقفة متعلمة لها القدرة على معايشة الآخر ، حيث لا ترى مركب نقص فهي تتعامل مع الآخر من مبدأ التعامل الندي، ويتجلى ذلك في تعلم لغة الآخر ومواصلة الدراسة.

– كما عمل عبد الكريم غلاب من خلال روايته على دحض فكرة المرأة الشرقية المستلبة ليخلق لنا نموذجا مخالفا يتمثل في المرأة الشرقية الإيجابية التي استطاعت أن تخلق تفاعلا ثقافيا مع الآخر من خلال فكرها المتفتح وعزيمتها الجبارة في المواجهة ومواصلة تحدي جميع العوائق .

– بعدما تعودنا تأنيث الغرب في مقابل رجولة الشرق ، حيث كانت ترمز أغلب الروايات إلى الغرب بالأنثى والشرق بالرجل تأتي رواية "شرقية في باريس" لعبد الكريم غلاب لتكسر هذه القاعدة التي سارت عليها أغلب الروايات العربية لتتخذ من المرأة

رمزا للشرق في مقابل الرجل رمزا للغرب حيث تتزوج المرأة الشرقية بالرجل الغربي دون إحساس بالنقص .

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

– **عبد الكريم غلاب** : شرقية في باريس ، دار منشورات مرسم ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، 2006 م.

2- المراجع :

– **أحمد علي إبراهيم الفلاحي :** الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري دراسة نفسية اجتماعية دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط1، 1434هـ/2013 م .

– **الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر** : كتاب الحيوان ، شرح وتحقيق يحي الشامي ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ،ط3 ، 1990 م ، ج1 .

– **الخليل بن أحمد الفراهيدي** : 1980م كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ،(دط) ، الكويت مطابع الرسالة ، ، مادة غرب ، ج4 .

– **طارق ياسين :** ، الاغتراب تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين و أوضاعهم ، عمان ، ط1 ، 1412هـ / 1992م

– **علي بن أبي طالب:** نهج البلاغة ، تحقيق محمد عبده ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان، (د،ط) ،ج4.

– **يحي الجبوري** : الحنين والغربة في الشعر العربي، ، دار مجدلاوي .عمان ، ط1 ، 2008 م .

– **ابن منظور** : لسان العرب ، ط1 ، . دار صادر ، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1997م .

– **نبيل راغب** : موسوعة الفكر الأدبي ، دار غريب ،مصر ، ،(د ط) ، 2002 م .

– **هديل عبد الرزاق أحمد** : الرواية النسوية خارج فضاءات الوطن روايات عالية ممدوح أنموذجا ، ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، الأردن، ط1، 2016م.

– **يحي العبد الله** : الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية ،(د،ط)، دار الفرابي ، عمان ، الأردن، 2005 م .

– **عالية زروقي** : صورة الآخر في الرواية الجزائرية من سنة 1950 م إلى سنة 2010 م ، أطروحة دكتوراه جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف ، الجزائر ، 2017 م .

– **سالم المعوش** : الأدب وحوار الحضارات (المنهج والمصطلح النماذج) ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ط1 ، 1428هـ / 2007 م .

– **عدنان علي الشريم**: الأب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ط1، 1429هـ ، 2008م .

– **ماجدة حمود:** إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، سلسلة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ربيع الآخر 1434، مارس 2013م .

– **سهى خالد عبد اللات** : شخصية المرأة في الرواية النسوية الأردنية في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين ، دار فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط1، 2007 م .

– **حسن عليان**: العرب والغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان ،الأردن ، ط1 2004/1425م.

- شعيب حليفي: هوية العلامات: دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2003م.

– **نور الدين الصدوق**:البداية في النص الروائي ، دار الحوار ، سوريا ، (د، ط) ، 1994م .